

السيرة النبوية

للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير

٧٠١ - ٧٤٧ هـ

تحقيق

مصطفى عبد الواحد

المجلد الأول

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

دار المعرفة

للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف ٢٣٦٧٦٩ - ٢٤٦١٦١

ص.ب ٥٧٦٩

بيروت - لبنان

السيرة النبوية

سيرة النذير

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .
وبعد : فهذا كتاب السيرة النبوية للإمام الحافظ ، أبى الفداء إسماعيل بن كثير ،
أقدمه للأمة الإسلامية راجيا أن يكون فى نشره من الخير ما يحقق الفائدة وما يقدم
سيرة الرسول الكريم فى صورة دانية إلى الكمال قريبة إلى الحقيقة دقيقة فى العرض محصنة
الروايات والأخبار .

إن الإمام ابن كثير وهو الحافظ المتقن قد جمع كل الأخبار عن حياة الرسول ودعوته
وماسبقها من فترة الجاهلية ، وقد بذل جهدا فى تمحيص الأخبار ونقد أسانيدھا ، وإن كان
قد ترخص فى رواية بعض الأخبار الواهية كما سنبذكر .

وعمله هذا يضع أمام القارئ كل ما يمكن الإمام به فى هذا المجال ، ويجعله على بصيرة
فى تفهّم السيرة النبوية ووعى أحداثھا .

وقد آسفنى أن تظل طبعة هذه السيرة الكريمة مليئة بالتشويه والتحريف بعيدة عن
الدقة والضبط ، فأثرت عرضها صحيحة بريئة من التحريف والتصحيف قدر
الإمكان ، وضبطتها وشرح الغريب فيها ، والتعليق على ما يستبعد من
الأخبار والآثار .

وسأعود إلى قصة هذا الكتاب وعلى فيه بعد الحديث عن مؤلفه والإمام شىء
من أخباره (١) .

ابن كثير :

هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل ، بن عمر ، بن كثير ، بن ضوء ، بن كثير ،
ابن زرع ، القرشى ، الشافعى .

كان أصله من البصرة ، ولكنه نشأ بدمشق وتربى بها .

ولد بمجدل القرية من أعمال مدينة بصرى شرق دمشق ، سنة سبعمائة أو
إحدى وسبعمائة .

وتوفى بعد أن فقد بصره ، فى يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان سنة
أربع وسبعين وسبعمائة ؛ عن أربع وسبعين سنة .

نشأته :

كان أبوه خطيبا لقريته ، ، وبعد مولد ابن كثير بأربع سنين توفى والده ، فرباه
أخوه الشيخ عبد الوهاب .

وعلى هذا الأخ تلقى ابن كثير علومه فى مبدأ أمره .

ثم انتقل إلى دمشق سنة ٧٠٦ فى الخامسة من عمره .

شيوخه :

كانت دراسة ابن كثير متجهة إلى الفقه والحديث وعلوم السنة ، إذ كانت الوجهة
الغالبة فى عصره ، وشيوخه فى هذا المجال كثيرون .

(١) ترجمته فى شذرات الذهب ٢٣١/٦ . والدرر الكامنة ٣٧٤/١ وذيل تذكرة الحفاظ للحسينى
٥٨ . وذيل الصبغات للسيوطى .

فقد تفقه بالشيخ برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري الشهير بابن الفركاح،
المتوفى سنة ٧٢٩ .

وسمع بدمشق من عيسى بن المطعم ، ومن أحمد بن أبي طالب المعمر الشهير بابن
الشحنة المتوفى سنة ٧٣٠ ؛ ومن القاسم ابن عساكر ، وابن الشيرازي ، وإسحاق ابن
الأمدي ، ومحمد بن زراد .

ولازم الشيخ جمال يوسف بن المزكي المرّئي ، صاحب تهذيب الكمال ، المتوفى
سنة ٧٤٢ .

وقد انتفع به ابن كثير ، وتخرج به ، وتزوج بابنته .
كما قرأ كثيرا على شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨ ،
ولازمه وأحبه وتأثر بآرائه . وفي ذلك يقول ابن العماد : « كانت له خصوصية بابن
تيمية ومناضلة عنه واتباع له في كثير من آرائه ، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق ،
وامتنح بسبب ذلك وأوذى » .

ويقول ابن حجر : « وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه وامتنح بسببه » .
كما قرأ على الشيخ الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي محمد بن أحمد بن قايماز
المتوفى سنة ٧٤٨ .

وأجاز له من مصر أبو موسى القرافي ، والحسيني ، وأبو الفتح الدبوسي ، وعلى بن
عمر الواني ، ويوسى الخثني . وغير واحد .

وقد ولي ابن كثير مشيخة أم الصالح والتكرية بعد إمامه الذهبي . كما ذكره
الذهبي في مسودة طبقات الحفاظ^(١) .

(١) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ٥٨ :

عصره :

عاش ابن كثير في القرن الثامن الهجري ، من بداية هذا القرن إلى قرب منتهاه ، في ظل دولة المماليك التي كانت تبسط سلطانها على مصر والشام .

وكانت في عصره نكبات شديدة شهدتها العالم الإسلامي ، ممثلة في هجومات التتار ، وفي كثرة المجاعات والأوبئة ، وفي تقلب السلطة بين أمراء المماليك الذين كانوا يوالون الانتقاض بعضهم على بعض ..

ويكاد الإنسان لا يفتح سنة من سنوات حياة ابن كثير في كتب التراجم والتاريخ إلا ويحد فيها أنباء المجاعات والأوبئة وهجومات الإفرنج والتتار ومصارع الأمراء ، مما لا يوصف بأنه حياة سياسية مستقرة .

ولكن تلك الحقبة التي عاشها ابن كثير من عصر المماليك كان يسودها نشاط علمي ، تمثل في كثرة المدارس واتساع نطاق التعليم وكثرة التأليف ، ولذلك أسباب مذكورة في التاريخ من تنافس الأمراء وكثرة الأوقاف على العلماء وبناء المدارس واتصال الأقطار الإسلامية بعضها ببعض ، وغير ذلك .

ولكن ذلك النشاط كان محصوراً في دائرة ضيقة دائرة الاتباع والتقليد والتأخير والاختصار والشرح ، كذلك كان هذا النشاط منصرفاً في كثرته إلى العلوم الشرعية وما يخدمها .

ويبدو طابع ذلك العصر واضحاً في ابن كثير ، إذ كان انصرافه إلى علوم السنة والفقه ، أو العلوم الشرعية بوجه عام وكانت مؤلفاته يغلب عليها طابع التأليف في عصره ، وهو الميل إلى اختصار كتب الأقدمين ، أو إدماج بعضها في بعض أو شرحها والتعليق عليها .

وإذا كان لابن كثير طابع تجديد تميّز به ، فإنه قد اكتسبه من علاقته بابن تيمية وحبّه له وتأثره بأرائه ، فقد كان ابن كثير كأستاذ ابن تيمية ينفر من الخرافات ويميل إلى الرجوع إلى السنة ويعتمد على التحقيق والتدقيق بوسيلته التي يملكها ، وهي نقد الأسانيد وتمحيص الأخبار .

كذلك كان ابن كثير في تفسيره إماما وصاحب مدرسة ، إذ نفر من الإسرائيليات والأخبار الواهية ، كما نفر من التفلسف وإقحام الرأى فى كتاب الله ، وآثر منهج تفسير القرآن بالقرآن ثم بالحديث والأثر .

منزله وآراء العلماء فيه :

احتل ابن كثير منزلة عالية فى الفقه والتفسير والحديث والفتوى ..

يقول عنه الذهبي : « الإمام المفتى المحدث البارع ، فقيه متفطن ، ومفسر نقال ، وله تصانيف مفيدة .

ويقول عنه ابن حجر : « اشتغل بالحديث مطالعة فى متونه ورجاله ، وكان كثير الاستحضار حسن المفاكحة ، سارت تصانيفه فى حياته ، وانتفع الناس بها بعد وفاته » .

ويقول عنه ابن تيمية : « لازم الاشتغال ودأب وحصل وكتب ، وبرع فى الفقه والتفسير والحديث ، وجمع وصنّف ، ودرس وحدّث وألف ، وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والفقه والعربية ، وغير ذلك . وأفتى ودرس إلى أن توفى » .

وقد اشتهر ابن كثير بالضبط والتحرّى والاستقصاء ، وانتهت إليه فى عصره الرياسة فى التاريخ والحديث والتفسير .

يقول عنه ابن حجر ، أحد تلامذته : « أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ورجالها ، وأعرفهم بجرّحها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ،

وما أعرف أنى اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه .

ويصفه ابن العماد الحنبلي فيقول :

« كان كثير الاستحضار قليل النسيان ، جيد الفهم يشارك في العربية وينظم نظما وسطا .

قال فيه ابن حبيب : سمع وجمع وصنف ، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف ، وحدث وأفاد ، وطارق أوراق فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير »
ويقول عنه ابن حجر :

« ولم يكن على طريق المحدثين في تحصيل العوالى وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم ، وإنما هو من محدثي الفقهاء » .

ولكن السيوطي يوجب على كلام ابن حجر بقوله :

« العمدة في علم الحديث على معرفة صحيح الحديث وسقيمه وعله واختلاف طرقه ورجاله جرحا وتعديلا ، وأما العالى والنازل ونحو ذلك فهو من الفضلات ، لا من الأصول المهمة » .

شعره :

كان ابن كثير - كما قال ابن العماد - « ينظم نظما وسطا » ولا يُذكر له إلا القليل من النظم ، مثل قوله :

تمرُّ بنا الأيام تَتَرى وإنما نَسَاق إلى الآجال والعين تنظرُ
فلا عائدُ ذاك الشبابُ الذى مضى ولا زائل هذا المشيبُ المكدرُ
وعلى كل فهو لم يشتهر بقول الشعر .

أسلوبه :

كان ابن كثير يشارك في العربية ، وثقافته الأدبية جيدة ، ولكن أسلوبه كان على مقتضى عصره من إثارة السجع والميل إلى الحسنات ، ويشتمل أسلوبه في بعض الأحيان على ألفاظ لا تناسب مستوى ابن كثير .

وفي كتابه الذي تقدمه نماذج لذلك ، مثل استعماله كلمة « الأذية » وكلمة « مُشْتَرَى » وغير ذلك من أساليب غير متناسقة وجمل غير متناسبة .

والحقيقة أن ابن كثير لم يكن ممن يهتمون بالعبارة أو يتجملون في الأسلوب ، وإن كان أسلوبه في التفسير قويا متناسبا ، وإنما هو إمام مفسر وفقيه محدث ، ولم يكن أدبيا متفننا يحرص على جمال العبارة وتناسق الأسلوب .

كتبه :

اشتغل ابن كثير بالتأليف والتصنيف ، وأكثر كتب في الحديث وعلومه ، ومؤلفاته معدودة ، وأهمها :

١ - تفسير القرآن الكريم

الذي قال فيه السيوطي : « لم يؤلف على نمطه مثله » .

وهو يعتمد على التفسير بالرواية ، فيفسر القرآن بالقرآن ، ثم بالأحاديث المشتهرة يسوقها بأسانيد ، ثم ينقد تلك الأسانيد ويحكم عليها ، ثم يذكر الآثار المروية عن الصحابة والتابعين . وهو مطبوع مشهور .

٢ - « البداية والنهاية » في التاريخ .

وهو موسوعة ضخمة ، ابتدأ فيه بذكر قصص الأنبياء وأخبار الأمم الماضية ، وفقا

لما ورد في القرآن والأحاديث الصحيحة ، ويكشف زيف الإسرائيليات والغرائب والمناكير .

ثم يذكر أخبار العرب وأحداث الجاهلية ، ثم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وفاته ، ثم يتابع أحداث التاريخ الإسلامي منذ خلافة أبي بكر حتى عصر ابن كثير في القرن الثامن الهجري .

ثم يختتمه بأشراط الساعة والفتن والملاحم وأحوال الآخرة .

وتاريخ ابن كثير هذا مرجع دقيق موفق لا يزال عليه التعويل . قال عنه ابن تقي بردي : « وهو في غاية الجودة » . وهو مطبوع ، وإن كانت طبعة رديئة .

٣ - اختصار علوم الحديث لابن الصلاح .

وهو كتاب نافع أضاف فيه ابن كثير فوائد كثيرة ، ورتبه واختصره . وهو مطبوع مع تعليقات للرحوم الشيخ أحمد شاكر باسم « الباعث الحثيث » .

٤ - مختصر كتاب « المدخل إلى كتاب السنن » للبيهقي ذكره في مقدمة اختصار

علوم الحديث .

وهو مخطوط .

٥ - رسالة في الجهاد . مطبوعة .

٦ - « التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل » جمع فيه كتابي « تهذيب

الكامل » للمرزى و « ميزان الاعتدال » للذهبي . وزاد عليهما زيادات مفيدة في الجرح والتعديل . وهو مخطوط .

٧ - « الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن » وهو المعروف بجامع المسانيد ، جمع

فيه بين مسند أحمد والبخاري وأبي يعلى وابن أبي شيبة ، مع الكتب الستة الصحيحين والسنن الأربعة . ورتبه على أبواب وهو مخطوط .

٨ - مسند الشيخين أبي بكر وعمر .

وفيه - كما قال ابن كثير في سيرته التي بأيدينا صفحة ٤٣٣ - ذكر كيفية إسلام أبي بكر وأورد فضائله وشماله وأتبع ذلك بسيرة الفاروق رضى الله عنه ، وأورد ما رواه كل منهما عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأحاديث وما روى عنه من الآثار والأحكام والفتاوى ، فبلغ ذلك ثلاث مجلدات والله الحمد والمنة ! كما قال ابن كثير .

وهو مخطوط أيضا لا ندرى أين هو .

٩ - السيرة النبوية مطولة ومختصرة ذكرها في تفسيره في سورة الأحزاب في قصة غزوة الخندق . ولم تنشر قبل .

١٠ - طبقات الشافعية . مجلد وسط ، ومعه مناقب الشافعى . مخطوط .

١١ - تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فقه الشافعية .

١٢ - وخرّج أحاديث مختصر ابن الحاجب .

١٣ - كتاب المقدمات . ذكره في اختصاره مقدمة ابن الصلاح وأحال عليه .

١٤ - ويذكر ابن حجر أنه شرع في شرح للبخارى ولم يكمله .

١٥ - وشرع في كتاب كبير في الأحكام ، لم يكمل ، وصل فيه إلى الحج .

وهكذا نجد اتجاه ابن كثير نحو السنة وعلومها يتضح في كتبه ، وتغلب عليه روح عصره فيتجه إلى المختصرات والشروح ونحوها ، وظهر ابتكاره في كتابته لتاريخه الفذ : « البداية والنهاية » وفي تفسيره للقرآن الكريم .

ولم يخرج في تأليفه عن النطاق الذى دارت حوله دراسته وأفنى فيه عمره ، وهو الحديث والتاريخ والتفسير والأحكام .

وقد شاع الانتفاع بالقدر القليل الذى عرف طريقه إلى الناس من كتب هذا الإمام .

العظيم ، ولكن الأسى يغشانا حين نسأل : أين هذه الكتب التي تُذكر له ولا يهتدى إلى مكانها؟! والتي نعتقد أنها لو عثر عليها وقدمت إلى الناس لسدّت فراغا وحقت نفعاً .

إن من المؤسف أن يبدّد تراث عزيز وتحرم منه أمة محتاجة .. ونحن ندعو من هنا كلّ الذين يُعنون بأمر التراث الإسلامي ، وخاصة المسؤولين عن ذلك في الدولة : أن يبحثوا عن آثار هذا الإمام العظيم ، وأن يهبطوا لكتبه النافعة السبيل كي تأخذ طريقها إلى أيدي الناس ، وأن يعاد تقديم كتبه المطبوعة في صورة صحيحة لائقة ، بعيدة عن التجارة والاستغلال .

هذا الكتاب :

ولكتابنا هذا الذي تقدمه اليوم قصة ..

فاقد كان الخيطاندي أمسكنا به هو أن ابن كثير ذكر في تفسيره في سورة الأحزاب في قصة غزوة الخندق ، أنه قد كتب السيرة النبوية مطولة ومختصرة ، حيث يقول : « وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزا وبسيطا والله الحمد والمنة » .

ومعنى ذلك أن كتابته للسيرة النبوية قد عرفت طريقها إلى أيدي الناس في عصره ، ولكن البحث في ناحية المخطوطات لم يدل على وجود تلك السيرة ككتاب مستقل ، ويبدو أنه حينما ألف كتابه الضخم « البداية والنهاية » قد أدمج تلك السيرة فيه ، وأن شهرة ذلك الكتاب وانتشاره في الأنحاء ، قد جعل الناس يقرأون تلك السيرة فيه ، ولم يعد لها كيان مستقل ككتاب ، وإذا كان ابن كثير قد ذكر أنه له السيرة النبوية

مبسوطة ، أى مطولة ، فإنه لا يعقل أن يكتب فيها أكثر من ذلك القسم الموجود بكتابه « البداية والنهاية » .

ومن هنا فقد اتجهتُ إلى نشر « السيرة النبوية لابن كثير » وهى ذلك القسم الذى أفرده ابن كثير لأخبار العرب فى الجاهلية وسيرة النبی صلوات الله وسلامه عليه وتاريخ دعوته حتى وفاته .

على اعتبار أن هذا القسم هو السيرة النبوية المطولة التى أشار إليها ابن كثير فى تفسيره .

والذى دعانى إلى ذلك أسباب منها :

١ - أن تلك السيرة قد شغلت نحو ثلاثة أجزاء من كتاب البداية والنهاية ، من أواخر الجزء الثانى حتى أواخر الجزء الخامس ، وهى بذلك موزعة بين أربعة أجزاء .

٢ - أن هذه الأجزاء من البداية والنهاية مرتفعة الثمن جدا ، حتى لقد بلغ ثمن الجزء الثالث وحده أربعة جنيهات مصرية إن وجد !! تبعا لاحتكار التجارة فى المراجع وقلة النسخ الموجودة .

٣ - أن هذه الطبعة المشار إليها مليئة بالتحريف والتشويه بصورة فظيعة ، ولا أدرى كيف ظلت هذه الطبعة تتداول فى أيدي العلماء والطلاب مع أنها لا تكاد تخلو صفحة منها من تحريف أو تصحيف أو سقط .

تلك الأسباب جعلتنى أرى فى نشر السيرة النبوية لابن كثير تحقيقاً لفوائد كثيرة ...

أهمها تعميم النفع بها بعد أن كانت محصورة فى أيدي قلة ممن يقدرון على شراء البداية والنهاية كلها بثمانى المئتين .

ولذلك تحقيق قصد ابن كثير حين كتب تلك السيرة المطولة وأراد أن تشيع وحدها بين الناس . .

وكذلك إنصاف ذلك العمل الجليل من أن يظل في صورته الشائنة المليئة بالتحريف .

سيرة ابن كثير :

ونقف هنا مستعرضين كتابة ابن كثير في سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، متأمين في خصائصه باحثين عن منهجه .

١ - إن أول ما نلمسه في سيرة ابن كثير أنه اهتم بالرواية بالأسانيد ، تمشياً مع صيغته الغالبة عليه كإمام محدث ، وأكثر مروياته عن الإمام أحمد والبيهقي ، وأبي نُعَيْم . فلم يكتف بنقل ما كتبه أهل السير أمثال ابن إسحاق وموسى بن عُقبة ، ولكنه جمع ما رواه أهل الحديث وبذلك اكتسب ميزة يتفرد بها بين من كتبوا في السيرة . وقد نقد ابن كثير بعض الأسانيد عند ما يكون المتن غريباً ، ليحكم على بعض الأحاديث ، وأحياناً يبين درجة الحديث دون أن ينقد السند .

٢ - ثم نجد ابن كثير يمتاز بأنه ينقل عن بعض كتب السير المفقودة مثل كتاب موسى بن عُقبة ، ومثل كتاب الأموي في المغازي ، كما ينقل عن بعض شروح السيرة مثل الروض الأنف للسهيلى ، والشفاء للقاضى عياض .

٣ - وفي مجال الاستشهاد بالشعر لا يهمل ابن كثير هذه الناحية ، ولكنه لا يتابع ابن هشام في كل مروياته من الشعر فيختصر بعضها ويهمل البعض الآخر .

٤ - وبالجملة فإن ابن كثير يحرص على جمع كل ما كتب في الموضوع الذى يتناوله ،

ولكنه لا يدمج الأحاديث والأخبار بعضها في بعض ، بل يحتفظ لكل نقل بطابعه ومكانه ، وكثيرا ما يعوزه الترتيب في النقل ، فلا ينسق الأخبار التي ينقلها حتى تكون وحدة منسجمة ، فأحيانا يبدأ بالخبر المطوّل ، ثم يذكر بعده أخبارا تحتوى على جانب من هذا الخبر أو تكررّه .

٥ - فإذا تتبعنا نقول ابن كثير عن غيره وجدنا فيها ظاهرة عجبية ..

هى : أنه يكاد لا يلتزم نص أى شيء ينقله . . ! فنقله عن ابن إسحاق أغلبها بالمعنى ، وقد تتبعنا ذلك في بعض الصفحات ، ورأيت أن إثبات الفروق بين ابن كثير وابن إسحاق شيء يطول مداه ، فابن كثير يقدم ويؤخر ويزيد وينقص ، ويغير ويبدل ويفوت بهذا التغيير والتبديل كثير من جمال عبارة ابن إسحاق وتناسقها .

كذلك نجد روايات ابن كثير للأحاديث تختلف بعض الاختلاف عما في أيدي الناس من الكتب التي ينقل ابن كثير عنها . .

فأحاديث البخارى التي يرويها ابن كثير بقوله : « وقال البخارى » لا تنطبق حرفيا مع صحيح البخارى الذى بأيدينا . .

كذلك القول في روايته عن صحيح مسلم وعن مسند أحمد وعن دلائل النبوة لأبى نعيم وعن دلائل النبوة للبيهقي ، وعن الشفا للقاضى عياض وعن الروض الأنف للسهيلى . .

تكاد لا تجد خبرا مطابقا بحروفه لما في الكتب المتداولة ، فلا يخلو الأمر من تغيير أو نقص أو اختصار . .

وحين نقف أمام هذه الظاهرة نبحت عن أسبابها فإن هناك أحد احتمالين :

(١) إمام أن يكون ابن كثير - وهو الإمام الحافظ المتقن - كان يعتمد على حفظه وروايته ولا ينقل عن النسخ المتداولة .

(٢) وإما أنه كانت هناك نسخ أخرى تختلف عما وصل إلينا من هذه الكتب . وعلى كل فإن مثل ابن كثير حجة في باب الحديث ولكنها على أى حال ظاهرة تستلقت النظر أن تكون روايات ابن كثير للأحاديث ونقوله عن الكتب مخالفة لما في أيدينا من هذه الكتب . . . وهي مخالفة لفظية يسيرة في بعض الأحيان .

٦ - فإذا ما تفحصنا منهج ابن كثير في الروايات ، رأيناه لا يبالي برواية كثير من الأخبار الواهية وخاصة في أخبار الجاهلية وهتاف الجان وقصصه . . . وقد كان بإمكانه ألا يلتفت إلى هذه الأخبار التي لا تمالك أمام النقد ، لكنه كان يبرىء نفسه بأمرين :

(أ) ذكر السند في كل خبر يثبته ، وبذلك يلقى التبعة على غيره .

(ب) أنه كان يعلق على بعض هذه الأخبار بأنه « غريب جداً » أو « لم يخرجوه » ونحو ذلك مما يضعف جانب الخبر . . . لكننا مع ذلك نود أن لو أهل ابن كثير هذه الأخبار التي ليس لها سند من العقل أو الحقيقة ، والتي تزعم الأذهان وتشوش على الحقائق . . . وخاصة فيما يتصل بحياة الرسول الكريم صلوات الله عليه ، فثلا الحديث الذي يرويه عن البيهقي عن العباس أنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم : « رأيتك في المهد تنافى القمر وتشير إليه بإصبعك ، فحيث أشرت إليه مال » ثم يذكر موافقة الرسول على ذلك حديث لا يتفق مع العقل أو مع حقائق الوجود ، ولا ينبغي بعد ذلك أن يقول ابن كثير : « تفرد به أحمد بن إبراهيم الحلبي وهو مجهول » .

إن مثل هذا الحديث يفتح ثغرة أمام أعداء الإسلام ليهاجموا على السيرة النبوية من

باب أمثال هـ - هذا الحديث من الواهيات والموضوعات . .

كذلك خبر خالد بن سنان ، وهيثاف الجان وأساطيره ، سار فيها ابن كثير شوطا بعيدا ممتلئا بالخرافات والأساطير ..

لكننا مع ذلك ننتحل العذر لابن كثير في إثبات مثل هذه الأخبار ، إذ كان عصره يحتفل بها ويهتم بروايتها ، وإذ كان قصده في كتابه الجمع والاستقصاء ومادام قد أدخل تبعته بإسناد كل خبر إلى راويه واهتم بالتخريج والحكم ، فإنه بذلك يكون قد أدى واجبه وقام بما عليه .

٧ - إن المطالع للسيرة النبوية لابن كثير يحمده هذا الرجل جهده الذي قام به ، إذ مزج أخبار السيرة بروايات الأحاديث فسـ بذلك نهجا جديدا لم يكن من قبله يهتمون به .

وإذ جمع كل ما يمكن في هذا المجال ، فوضع أمام المطالع لكتابه مادة وافية تمكنه من الدراسة والإحاطة والاستيفاء .

وقد أعان ابن كثير على ذلك عصره المتأخر وإحاطته بالأحاديث وإيجاده للروايات والأخبار .

منهج التحقيق :

اعتمدت في إخراج السيرة النبوية لابن كثير على ما يأتي :

- ١ - نسخة مصورة من البداية والنهاية لابن كثير تحمل رقم ١١١٠ تاريخ بدار الكتب المصرية ، وهي مصورة عن مكتبة ولي الدين ٢٣٤٧ بالآستانة . وإليها الإشارة بالحرف (١) .
- ٢ - نسخة مخطوطة من البداية والنهاية بالمكتبة التيمورية تحمل رقم ٢٤٤٣ تاريخ وهي ناقصة من أولها .

٣ - النسخة المطبوعة من البداية والنهاية سنة ١٣٥١ بمطبعة السعادة وقد قوبلت على أصليين الأصل المصور المشار إليه في هوامشها بالنسخة المصرية. وعلى نسخة محفوظة بالمدرسة الأحمدية بحلب وعلى كل فإن مخطوطات البداية والنهاية المذكورة لا تتسم بالدقة، إذ أن فيها أخطاء أشرت إلى كثير منها في هوامش هذا الجزء، ويبدو أنها كتبت في عصور متأخرة، أو تولى نسخها من لا يعوّل على التحقيق.

وقد كان جهدى في إخراج هذه السيرة متجها إلى ضبطها وتنقيتها من الأخطاء التي خرجت بها إلى الناس في النسخة المطبوعة الشائعة من البداية والنهاية وتشارك في أكثرها النسخ المخطوطة، فرجعت إلى الأصول التي أشار إليها ابن كثير، مثل كتب السير وكتب الحديث، عدا بعض ما لم يتيسر الرجوع إليه مثل معجم الطبراني وهواتف الجان للخرائطي ودلائل النبوة للبيهقي.

ولم أحاول إثبات الفروق بين ابن كثير وبين كل ما ينقل عنه، إذ تبينت - كما أشرت إلى ذلك قريبا - أن ابن كثير يخالف في كتابه النصوص التي بأيدي الناس من الكتب التي ينقل عنها، فلا يخلو الأمر من زيادة أو نقص أو تغيير أو تبديل، ولكني أثبت بعض الفروق على سبيل المثال، مثل الفروق بينه وبين البخاري ودلائل النبوة لأبي نعيم ومكارم الأخلاق للخرائطي، والروض الأنف للسهيلي، ومسند أحمد وسيرة ابن هشام والشفاء ونحو ذلك، ولو أنى التزمت إثبات كل الفروق بينه وبين إسحق أو البخاري أو أحمد وغير ذلك، لطال الأمر واتسع المدى، وليس في ذلك كبير فائدة.

كذلك أثبت أهم الفروق بين النسخ المخطوطة والمطبوعة على ندرة ذلك.

ولم أعول في التعليق إلا على تصويب الأخطاء وشرح ما يغمض من المفردات، ولم أتوسع في التعريف بالأعلام، لأن ذلك لا فائدة منه في مثل هذا الكتاب، وحتى لا يخرج

بنا الأمر إلى أن يصير الكتاب حاشية من الحواشي القديمة ، إذ لا فائدة في التعليق على كل ما يمكن التعليق عليه ، بل الفائدة في التعليق على ما يجب التعليق عليه ، وقد يلمس القارئ أن أسانيد الروايات والأحاديث لم تظفر بما ينبغي لها من التعريف بهؤلاء الرجال وذكر وفياتهم ، ولو أنى فعلت ذلك لخرجنا بكتاب في رجال الحديث ما أرى قارئ السيرة النبوية بحاجة إليه ، وفي هذا الباب كتب متخصصة ميسرة لمن أرادها .

ويلاحظ أنى تدخلت بنقد بعض الأخبار التي ذكرها ابن كثير ، ولم أملك أمامها سوى الاستبعاد العقلي ، وقد رأيت ذلك واجبا حتى يقنعه القارئ إلى أنه ليس مطالبا بتصديق كل ما أثبتته ابن كثير في كتابه هذا مادام ليس ثابتا بدليل شرعى صحيح أو ليس له سند من العقل ، وخاصة الأشعار التي تبدو عليها الصفة والتكلف ، والأخبار الأسطورية التي لا تناسب يقظة البشرية وارتقاءها ، وليس جانب السند هو الذى يهمننا فى الخبر فحسب ، بل يُطلب أن يكون المتن أيضا منتسبا إلى الحقيقة بعيدا عن التزوير .

وقد نقد ابن خلدون ، وهو الإمام الحجة ، كثيرا من الأخبار بهذا المنهج ، منهج الاستبعاد العقلي وبيان منافاة الخبر للسنن الكونية والظروف التاريخية ، كما أشار إلى ذلك فى أول مقدمته .

ولم أرفائدة فى تخريج الأخبار ، أى ذكر ما كن وجودها فى الكتب ، إذ أن أكثر أخبار السيرة مشترك بين الكتب التي تتناولها ، فلا يفيد القارئ أن نذكر أن هذا الخبر مثلا موجود فى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى وشرح المواهب والشفاء والروض الأنف ودلائل النبوة لأبى نعيم وعيون الأثر والاكتفا للسكلاعى والوفا لابن الجوزى والسيرة الحلبية وما إلى ذلك من كتب السيرة بالإضافة إلى ما يمكن أن يوجد فيه الخبر من كتب الحديث ، وفى كل ذلك نذكر أرقام الصفحات ، إن ذلك كان يملأ حيناً كبيراً لا حاجة

إليه ، ويكفى أن يعلم القارئ أن أكثر أخبار السيرة النبوية وما قبلها من فترة الجاهلية مشترك بين هذه الكتب التي ذكرناها وغيرها من كتب الحديث والسيرة .

إن الذى عنيت به هو أن تخرج هذه السيرة الكريمة مضبوطة بريئة من التحريف والتشويه الذى كان يحيط بها فى طبعة البداية والنهاية ، وأن أشرح ما يحتاج إلى الشرح من المفردات وأن أشير إلى ما أصلحته من أخطاء ، وما عثرت عليه من أهم الفروق ، وأن أنبه إلى ما يستبعد من الأخبار .

ولا أزعم أنى أدبت كل ما يجب على فى إخراج هذا الكتاب ، ولكنى بذلت ما أمكن حسب الطاقة والظرف . وإنى اليوم وأنا أقدم الجزء الأول من هذه السيرة ، أخلص النية فى بذل ما يمكن فى سبيل إخراج بقيتها فى أقرب ثوب إلى الصحة والكمال ..

إن الظروف التى طبع فيها هذا الجزء ، ولم أكن فيها قريباً من المطبعة ، بل اضطررتى ظروف العمل إلى أن أكون بعيداً عنها ، قد جعلت فرصة لوقوع بعض الأخطاء التى تداركتها فى آخر الكتاب ، وبعضها مطبوعى بحت ، والآخر سهو ونقص ، ومنها قسم هو من أخطاء أصول الكتاب تبينته من المراجع ونهت إليه حتى يكون القارئ على بصيرة من أمره .

وحسبى فى هذا العمل نيتى وقصدى ، ولكل امرئ ما نوى ..
راجياً من الله سبحانه أن ينفع به وأن يهينى لى إتمامه بما يرضيه ، إنه واهب الرشد ومانع التوفيق ؛ له الحمد فى الأولى والآخرة ، نعم المولى ونعم النصير .

مصطفى عبد الواسع

القاهرة { ٢٣ من ذى الحجة سنة ١٣٨٣
٥ من مايو سنة ١٩٦٤